وتقاليد اجتماعية . لقد كان الجاحظ موسوعى المعرفة دقيق الملاحظة ، سلس الاسلوب ، قوى العارضة ، ساخرا متهكما ، ولكن دون مرارة .

واهم من ذلك كان مصورا بالقلم تصويرا فنيا يجسم افكاره ، تجسيما مشوقا اخاذا ويكفى ان نشير الى رسالة التربيع والتدوير التى وصف فيها احمد بن عبد الوهاب لكى نبين عبقرية الجاحظ فى فن الكاريكاتور القلمى . وفضلا عن ذلك ، فانك تلمح فى كتابات الجاحظ حبا للحياة ، وولعا بالناس ، وتقديرا للانسان فهو ليس فيلسوفا يكتب عن الافكار المجردة ولكنه اديب اقرب الى الصحفى ، يكتب عن المجتمع باسلوب رشيق سلس اخاذ » .

وبمقارنة الجاحظ بمعاصريه ، نستطيع ان ندرك خصائص اسلوبه القريب من الصحافة ، فابن المقفع ، مثلا اديب وادبه خلاصة مطالعاته وتجاربه وتجارب اسلافه من البيئة الفارسية القديمة . وهو يسلك فى كتابة ادبه طرقا فنية خالصة ، وهى تعبير مجازى ممتاز ، كان يتدث على السنة الطير والحيوان ، ويعتمد على الصور البيانية الرائعة ، ولكنه مستوى ادبى جمالى يرتبط بالرمز الفنى ، ولا يتصل بالواقع العلمى الا اتصالا يسيرا .

النمذجة والدقة فى اللغة العربية :

تقدم اننا نعنى بالنمذجة فى لغة العرب انها لغة دالة والنمذجة والتبسيط من اهم سمات لغة الاعلام التى تعرض الاحداث والافكار منتزعة سماتها كما لو كانت وحدات مستقلة وهى نمذجة مقصودة لاسباب خارجية اهمها التبسيط للجماهير التى تحتاج الى الفاظ تعبر عن المفاهيم الخلقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والافكار العامة التى نشأت فى الحياة الانسانية ونمت وتطورت .

وقد قامت اللغة العربية بسد هذه الحاجة الى الالفاظ العامة ، والانماط لاغناء الحاجة اليها للتعبير عن هذه المعانى العامة فى الميدان المادى والمعنوى منذ عهد بعيد .

فاللغة العربية غنية بالالفاظ الدالة على المعانى العامة كما انها غنية بالالفاظ الخاصة الدقيقة ولغة الاعلام تحتاج الى النوعين كليهما فى حياتها وتطورها ولكل منهما موضع يليق به .

يعود هذا الاستعداد لتخصيص الالفاظ بمعانيها الى سعة الاشتقاق فى اللغة العربية على قواعده التى تؤدى كل قاعدة معناها المستفاد من وزنها ، فان الاشتقاق على حسب هذه القواعد يستمد من الفعل عمل الاسم وعمل الصفة وموضع استخدام كل منهما، فيأتى الاسم معبرا عن واقع فعله عن المقصود بوصفه وتصلح المادة الواحدة اساسا كاملا من المعانى المتفرعة عليها (103) .

ويأتى عمل المضاعف والمزيد فيوسع دلالة المادة اللفظية او يسرى منها الى معانى تناسبها وقد تخالفها فى بعض عوارضها .

فالاشتقاق العربى يعطى المتكلم من الاوزان بمقدار ما يحتاج اليه من المعانى المحتملة على جميع الوجوه والمتكلم هو صاحب الشان فى اختيار الكلمة وليست الكلمة هى العبارة المفروضة عليه لانها وضعت من اصلها ارتجالا او محاكاة لصوت او تلفيقا للاجزاء من مختلف المواد .

ولا يحتمل العقل المعبر صيغة للاشتقاق بعد استيفاء صيغ المصدر للمرة او للهيئة او للدلالة على الجمع أو الجنس المجموع ، ولا احتمال لصيغة مطلوبة بعد صيغ المبالغة والتضعيف واسم الفاعل واسم المفعول والصفة الملازمة ، والصفة المرتهنة بالحدث والزمان (104) .

فالمتكلم المميز هنا هو صاحب الشان فى تصريف المشتقات على حسب اغراضه واحتمالات تفكيره ، واللغة قد وصلت على السنة المتكلمين بها الى خلق القواعد التى يتبعها تكوين المفردات ، قبل ان تعرض لهم الحاجة الى استخدام جميع تلك المفردات او انشاء الكلمات المرتجلة مع كل مشاهدة تاتى للمتكلم بشئ جديد يحتاج الى لفظ جديد ، ولذلك لم تضع الرابطة الاشتقاقية بين الالفاظ العربية على اختلاف عصورها

---

(103) العقاد : « اشتات مجتمعات » ـ ص : 100 ـ 101 .
(104) نفس المرجع ـ ص : 102 .

وتاريخ ميلادها وعلى اختلاف بيئاتها ومساكنها ، فكلمة « طائرة » و « سيارة » و « هاتف » و « اشتراكية » ولدت فى هذا العصر ، ومع ذلك فان الرابطة الاشتقاقية لم تصنع بينها وبين « طائر » و « مسير » و « هاتف الجن » و « شرك » مع ان بين ميلاد تلك الالفاظ وقريباتها هذه مدة تزيد على خمسة عشر قرنا ، ولا نزاع فى ان منهج اللغة العربية فى الاشتقاق قد زودها بذخيرة من المعانى والنماذج لا يسهل اداؤها فى اللغات الاخرى ، فى نطق التركيز الاعلامى الذى هو شيمة الاسلوب العربى الاصيل .

فالالفاظ المنتسبة الى اصل واحد تشترك فى قدر من المعنى وهو معنى المادة الاصيلة العام كالطيران فى طائرة والسير فى سيارة وتسير والاشتراك فى الشرك والاشتراكية ويقابل هذا المعنى المتداول ان العنصر الثابت من اللغة ، والمكون من جزء مادى هو الحروف الثابتة فى مادة الكلمة وجزء معنوى هو معناها العام، هو اداة النمذجة ووسيلة الاتصال بين جماهير الامة العربية :

واذا كانت النمذجة فى لغة الاعلام لا تقتصر على الشخصيات بل تتجاوزها الى الافكار والمذاهب والعقائد . بحيث اصبحت هناك افكار ثابتة عن الشيوعية او الراسمالية ، ويتلقى الجماهير ثقافتها ومعلوماتها من خلال هذه النماذج ، فقد كانت العربية من اوائل اللغات استخداما للنمذجة عن طريق استخدام العام مثلا فى بعض ما يدل عليه ، لسبب اجتماعى ما ، يزيل تقادم العهد عموم معناه ، ويقصر مدلوله على الحالات التى شاع فيها استعماله . ولدينا فى اللغة العربية آلاف من امثلة هذا النوع .

فمن ذلك جميع المفردات التى كانت عامة المدلول ثم شاع استعمالها فى الاسلام فى معان خاصة تتعلق بالعقائد او الشعائر او النظم الدينية : كالصلاة والحج والصوم والمؤمن والكافر والمنافق والركوع والسجود... الخ - فالصلاة مثلا معناها فى الاصل الدعاء — كما جاء فى القرآن الكريم : « وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم » — ثم شاع استعمالها فى الاسلام فى العبادة المعروفة لاشتمالها على مظهر من مظاهر الدعاء ، حتى اصبحت لا تنصرف عند اطلاقها الى غير هذا المعنى. والحج معناه فى الاصل قصد الشئ والاتجاه اليه ، ثم شاع استعماله فى قصد البيت الحرام ، حتى اصبح مدلوله الحقيقى مقصورا على هذه الشعيرة ، الخ ..

وتقوم النماذج فى اللغة العربية كذلك على اساس كثرة استخدام الكلمة فى معنى مجازى لسبب اجتماعى ما يؤدى غالبا الى انتراض معناها الحقيقى وحلول هذا المعنى المجازى محله . فمن ذلك مثلا فى اللغة العربية كلمات المجد والامن والوغى والغفران والعقيقة ، الخ - فالمجد معناه فى الاصل امتلاء بطن الدابة من العلف ، ثم كثر استخدامه مجازا فى الامتلاء بالكرم حتى انتزض معناه الاصلى واصبح حقيقة فى هذا المعنى المجازى ، ولهذا السبب نفسه انتقل معنى « الامن » من قلة لبن الناقة الى نقص العقل ، وانتقل معنى « الوغى » من اختلاط الاصوات فى الحرب الى الحرب نفسها ، الخ -

ان هذه الخاصة فى اللغة العربية من نمذجة للمعانى بهدف التبسيط فى شكلها المتسع المتنوع الموجود فى العربية مما يؤكد خصائصها الاعلامية . كمعنى الفاعلية والمفعولية والمكانية ، وهى ليست انماطا ثابتة لا تتغير ، ولكنها ترتبط بالتطور الفكرى والاجتماعى وحاجته الى نماذج او انماط جديدة ، وقد حدث شئ من هذا فى تاريخ العربية ، فقد استعمل فى العصر العباسى ما سموه بالمصدر الصناعى كالانسانية والحيوانية . وقد استعملنا نحن اليوم هذه الصفة لحاجتنا اليها للتعبير عن المذاهب كالمادية والوجودية والاشتراكية وغيرها .

ان اوزان العربية وابنيتها هى احدى مقوماتها وخصائصها المميزة ، وهى كما تقدم تقوم بوظيفة اعلامية معرفية وبوظيفة فنية ، فالكلمات التى تستعمل للغرضين كثيرة فى اللغة العربية وليست بهذه الكثرة فى اللغات الاوربية .

العربية لغة الاعلام :

وظاهر من جملة هذه الملاحظات ان اللغة العربية تتضمن فى ابنيتها وتراكيبها والفاظها خصائص اعلامية: فهى لغة معرفية ، تقوم على الوظيفة الهادفة وتتضمن اتصالا ناجحا اساسه الوضوح والسهولة والسلاسة والتبسيط ، فهى لغة عملية تعبر عن الحياة والحركة والعمل والانجاز ، لانها لغة قوم يتلازم عندهم القول والتفكير والعمل فى حياتهم : فقول العربى تفكيره ،

وتفكيره بدء لعمله . ولذلك اعتبره الشاعر الجاهلى زهير احد شطرى الانسان اذ قال : « لسان الفتى نصف ونصف فؤاده » .

تلك بعض السمات فى اللغة العربية ، هى اللغة المؤثرة حقا .

ومن الطريف ان هذه اللغة الحية هى نفس اللغة التى اقتربت من الادب عند الجاحظ ، بأسلوبها السهل الممتع القوى المعبر ، المتدفق فى حيوية وايقاع.

ومن ذلك يبين ان اللغة العربية ـ وهى وعاء العقل العربى ـ تتميز بخصائص اعلامية نشأت فيها من روح الامة العربية وتجاربها المتراكمة المستمرة ، وتدل على مرونة اللغة العربية ، واستجابتها لمتطلبات الحياة ، ومقتضيات الحضارة ، وتدل كذلك على الذهن العربى المتمتع بالنقاء والصفاء ، والتفتح والانطلاق ، وكل ذلك من معطيات الطبيعة الصحراوية ، وانعكس كل ذلك على اللغة العربية وظهرت فى مفرداتها وتعابيرها الخصائص الاعلامية النابعة من هذه المعطيات نفسها فنجد فى اقوال العرب : اللفظ المعبر ، المسؤول عن وظيفته فى الجملة والجملة الصحيحة المسؤولة عن دورها ووظيفتها فى تأدية الفكرة ، وايضاح المعلومات .